المحاضرة الثانية عشر

(انكلترا في العصور الوسطى)

مقدمة : كان يسكن انكلترا قبل الغزو الروماني ، الذي حدث في القرن الأول قبل الميلاد ، اقوام تعرف بالكلتيين ويعتقد ان اصول الكلتيين ترجع الى منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط . وقد جاءوا اليها عبر المانش. وكان قد حل الايبريون بالجزيرة قبل الكلت ، فلما جاءهم الكلت فرضوا عليهم لغتهم ونظمهم ثم انهضم الكلت. انفسهم في الايبريين على مر العصور . ثم غزت الجيوش الرومانية انكلترا في القرن الأول قبل الميلاد. واحتفظ الرومان بنوع من السيطرة على البلاد الى اوائل القرن الخامس حيث اضطروا الى سحب حاميتهم منها نتيجة للاخطار المحدقة بالأمبراطورية الرومانية ولغزو القبائل الجرمانية لايطاليا. ولم تتأثر انكلترا كثيرا بالحضارة الرومانية ، وذلك لبعدها عن المراكز الرئيسة لتلك الحضارة من جهة ، ولبدائية الشعوب التي كانت – تقطنها من من جهة أخرى. وهاجمت القبائل الجرمانية البربرية ، وخاصة قبائل الانكلز والسكسون، انكلترا بعد انسحاب الرومان منها ، وقد نجح هؤلاء في احتلالها وفي اقامة عدد من الممالك الصغيرة فيها ، كانت في حالة حرب مستمرة مع بعضها البعض. وخلال تلك العصور من الفوضى السياسية نجحت الديانة المسيحية في شق طريقها الى الجزر البريطانية. واستطاع القديس اوغسطين نشر المسيحية في اواخر القرن السادس. وقد عمت الكنائس والأديرة اجزاء من انكلترا وغيرها من الجزر البريطانية وقام رجال الدين من اساقفة وقسس ورهبان في نشر الثقافة الرومانية وفي نشر نوع من التعليم.

واستمر الصراع بين الممالك الجرمانية الصغيرة مدة تزيد على القرنين وفي اوائل القرن السابع برزت سبع ممالك كبيرة متميزة هي كنت (Kent) في الجنوب الشرقي واسكس (Essex) وسوسكس (Sussex) ويعد ويسكس (Wessex) وسكان هذه الممالك كلها من السكسون ونورث امبريا (Northumlria) ومرسيا (Mercia) وانجليا (Anglia) . وسكان هذه الممالك الثلاث من الانكلز وفي اوائل القرن التاسع استطاعت احدى هذه الممالك السبع وهي ويسكس. الواقعة في اقصى الجنوب الغربي من انكلترا ، بسط سيطرتها على بقية الممالك ، فأقامت بذلك ، نوعاً من الوحدة السياسية في البلاد. وتعتبر هذه هي نقطة الانطلاق في التاريخ الانكليزي.

وتعرضت انكلترا خلال القرنين التاسع والعاشر الى هجمات الفايكنك ، وقد شملت هجماتهم مختلف اجزاء الجزء البريطانية. فالحقوا الخراب والدمار فيها ، وفي ويلز وايرلندة واسكو تلندة . واستطاع الملك الفريد العظيم ملك ويسيكس تنظيم المقاومة في انكلترا ضد الغزاة .

وبعد حروب طويلة توصل الى اتفاق معهم يقضي بتقسيم انكلترا الى قسمين أخذ هو أحدهما ، واستولى الفايكنك على الآخر. ونجح خلفاء الفريد في استخلاص ذلك القسم الذي اخذه الفايكنك وبهذا توحدت انكلترا.

وفي عهد الملك ادوارد المعترف Edward the Confessor اصبحت البلاد كلها تحت سيطرة النبلاء الاقوياء. وعندما توفي ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ . نشب صراع حول العرش وهاجم احد قادة الفايكنك انكلترا من ناحية الشمال بحجة ان ادوارد وعده بالعرش من بعده كما اغار وليم دوق نورماندیا من الجنوب بدعوى احقيته ان يخلف ادوارد في الحكم ، وانتخب نبلاء البلاد هارولد كردوين ملكا . وانتصر هارولد على المهاجمين الفايكنك ، وسار الى الجنوب لملاقات وليم النورماندي عند بلدة هستنجز Hastings ووقعت معركة عرفت بهذا الاسم ، انتصر فيها الفرسان النورمان الذين كانوا يحاربون بالرماح والسيوف تساندهم فئات من رماة النبال على مشاة الانكليز الذين كانوا يحاربون بالطيرات والفؤوس وقتل هارولد نفسه في ساحة المعركة فتمت سيطرة وليم الفاتح.

وتعتبر معركة هستنجز من المعارك الفاصلة في التاريخ وذلك انها انهت عزلة انكلترا وربطتها ربطا محكما بمجرى الاحداث السياسية في القارة الأوربية وبالتيارات الثقافية والحضارية لتلك القارة. كما انها أخضعتها لحكم قوى وكفؤ بشكل متميز. وقد حقق ذلك الحكم خلال جيلين فقط تغيرا سياسيا واقتصاديـا واجتماعيا جذريا في الحياة الانكليزية وطور من المؤسسات والانظمة ما ان اصبحت انكلترا معها تسبق بقية الاقطار الأوربية بمراحل كثيرة بعد ان كانت مختلفة عنها، كما ان تلك المؤسسات والمنظمات تمثل الجذور البعيدة للاجهزة السياسية والادارية للبلدان الناطقة باللغة الانكليزية في الوقت الحاضر.

وقبل الكلام من الحكم النورماندي لانكلترا ، يحسن بنا اعطاء نبذة عن المؤسسات والأوضاع التي كانت سائدة فيها قبل ذلك ، الا ان هؤلاء ابقوا على الكثير من تلك المؤسسات والأوضاع التي كانت سائدة في عهد الانكلو سكسون بعد ان حرروها بالشكل الذي يتلائم مع مصالحهم من ناحية ويتمشى مع الظروف والأحوال المتطورة من ناحية الخرى.

كر فانكلترا التي كان يحكمها ملوك ويسيكس في القرن العاشر تتألف اداريا من اربع وثلاثين ولاية تسمى الواحدة منها شاير اوكاونتي (County) وقد وضعت كل واحدة منها تحت اشراف مشترك من اسقف(Bishop) ونبيل (ايرل)(Earl) وشرف (Sherift)) يمثل الأول الكنيسة ويمثل الثاني النبلاء ويمثل الثالث الملك والنبلاء، وكان في كل كاونتي محكمة تسمى محكمة الكاونتي (Courty Court) ويحضر اصحاب الأراضي جميعا اجتماعات هذه المحكمة،

وهي هيئة قضائية بالدرجة الأولى مع قيامها بالاشراف على بعض الامور الادارية احيانا. أما القانون الذي كان يحكم به فهو القانون الجرماني من حيث الأساس ذلك القانون الذي يستند على العرف والتقاليد الموروثة. وكانت وسائل الاثبات بدائية وكانت المحاكمة بواسطة المحنة هي السائدة وهذه المحاكم تنظر في جميع القضايا المدنية والجنائية الدينية والدنيوية. وتنقسم كل كاونتي الى وحدات اصغر منها تعرف بالمئات (hundreds) وكل مئة تنقسم بدوارها الى وحدات صغيرة تعرف بـ هايد (Hides) او قرية. كل قرية تقرب مساحتها من ١٢٠ ايكر. وكانت المدن قليلة في انكلترا في عهد الانكلو سيكسون ولعل أهمها لندن ويورك و برستول، وهناك مدن اخرى اصغر من هذه هي القصبات ولكن الحياة كانت ريفية بحملتها. وينقسم المجتمع في عهد الانكلو سكسون الى طبقات اجتماعية عديدة وهذا التقسيم مماثل بشكل عام ما كان سائدا بين الشعوب الجرمانية في القارة الاوربية . فكان هناك المحاربون والفلاحون والعبيد.

وعندما جاء النورمانديون قسموا المجتمع إلى طبقتين فقط هما الاحرار والعبيد. اما الجهاز الاداري والبلاط ، فكان بسيطا جدا ، ويشبه الى حد كبير الادارة الملكية عند الكارولنجيين . اذ يتألف من بضعة موظفين منهم رئيس الخدم والمسؤول عن الاسطبل والحاجب وبعض المستشارين (Chancellers).

وهناك مجلس كبير يضم مستشاري الملك وكبار نبلاء المملكة يعرف ب (وايتان). وهو اكبر مجلس في البلاد يدعى من قبل الملك للتشاور. ولكن عضوية هذا المجلس ووظائفه كانت غامضة وغير محددة.

وتعتمد موارد الملك المالية على دخله من اراضيه الخاصة ومن الضريبة المعروفة باسم (الدانكل) (Dangeld) ومن الغرامات التي تفرضها المحاكم حيث يحصل الملك على ثلثي تلك الغرامات. ومن ضريبة تعرف بضريبة حق الطعام ، وكانت هذه الضريبة تدفع عينا في عهد الانكلو سكسون ، ولكن النورمانديين حولوها إلى ضريبة نقدية.

الفتح النورماندى – وليم الفاتح :

وبالنسبة الى وليم الفاتح نفسه فهو من الشخصيات المهمة في تاريخ العصور الوسطى وهو في الاساس تابع اقطاعي (Vassal) لملك فرنسا وذلك بصفته حاكما لنورماندیا وقد ابقى وليم على الكثير مما خلفه الانكلو سكسون من ترتيبات رأى فيها تعزيزاً للسلطة الملكية ، وادخل ترتيبات اخرى تأكيدا لهذا الاتجاه . لقد وضع وليم نصب عينه هدفا مهما وهو تقوية السلطة الملكية على حساب نبلاء المملكة الدينيين منهم والدنيويين .

لقد اعتبرت جميع القلاع في انكلترا منذ البداية قلاعا ملكية ، ومنع بناء اية قلعة جديدة الا بموافقة الملك ، ومنع وليم منعا باتا الحروب الخاصة ، وهي تلك الحروب التي اعتاد ان يشنها النبلاء ضد بعضهم البعض واعتبر سك النقود من امتيازات الملك الخاصة لا يجوز التجاوز عليها.

اما الاقطاع الذي طبقه وليم في انكلترا فقد كان نموذجا لمفهوم الاقطاع في العصور الوسطى ، فبحق الفتح اعتبرت جميع اراضي انكلترا ملكا للمك ومن ثم بدأ بتوزيعها على كبار اعوانه او ما يعرفون بالاتباع المباشرين (tencnt–in–Chief) وكان عددهم مائة وسبعين نبيلا وقام هولاء الاتباع المباشرون بتوزيع مالهم من اراضي على اتباعهم وهكذا ، ولكن وليم الزم الجميع باداء يمين الولاء المباشر له دون سواه وهذه سابقة وميزة تميزت بها الملكية في انكلترا عما سواها في الاقطار الاوربية الاخرى خلال العصور الوسطى.

وابقى وليم على ضريبة الدانكل والضرائب الاخرى التي كانت موجودة في عهد الانكلوسكسون كما ابقى على محاكم الولايات ولكنه زاد من سلطة " الشرف" فصار هذا موظفا حكوميا ممثلا الملك فقط وتحت اشرافه المباشر. وعلاقة وليم بالكنيسة لها هي الاخرى اهمية خاصة ، فقد منع الاخذ باي امر بابوي دون مصادقة الملك عليه ، كما منع تطبيق عقوبة الحرمان على اي موظف انكلترا دون موافقة الملك والاكثر اهمية من هذا ان الكنيسة الانكليزية لا تعترف باي بابا دون مصادقة الملك. وعندما طلب غريغوري السابع حق السيادة البابوية على انكلترا رفض طلب،ولم يكتف وليم بتعيين الاساقفة وروساء الاديرة فحسب ، بل انه رسم لهم واجباتهم الدينية والدنيوية.

واجرى وليم اصلاحات كثيرة في الكنيسة في انكلترا ، فقد فصلت المحاكم الدينية عن الدنيوية ، واكد الحفاظ على المستوى الخلقي الرفيع لرجال الدين. وشجع على الاكثار من عقد المجامع الدينية ، واكثر من بناء الكنائس والأديرة والكاتدرائيات . ويبدو ان الكنيسة في انكلترا شهدت في عهد وليم الفاتح اصلاحات شاملة ، شأنها بذلك شأن الاجهزة الادارية والحكومية الأخرى.

وحل في عهد وليم مجلس الملك(Curia regis) محل (وايتان) الانكلوسكسوني ومجلس الملك هذا هو مجلس اقطاعي يتالف من كبار الاقطاعيين او الاتباع المباشرين للملك وكبار الموظفين . ويجتمع مجلس الملك ثلاث مرات في العام. ويمكن ان يدعي الى الاجتماع في اي وقت يشاؤه الملك. وفي اجتماع طارى من هذا النوع في سالسيري عام ١٠٨٦ فرض وليم الأول على جميع الحاضرين اداء يمين الولاء الاقطاعي له.

لقد كان مجلس الملك هذا يعمل كمجلس استشاري للملك في الوقت نفسه كان يعالج امورا وقضايا خاصة بكبار الاقطاعين او الاتباع المباشرين ، وفي هذه الحالة يصدر الحكم باسم المجلس وليس باسم الملك. ولعل من اهم انجازات وليم الفاتح الاخرى قيامه باجراء مسح شامل لموارد انكلترا البشرية والاقتصادية في كتاب دومزدي (Domesday book) وهذا المسح الذي قام به وليم الفاتح هو الاساس للتنظيمات الادارية التي وضعها الملوك النورمانديون. والحقيقة انه مفخرة من مفاخر انكلترا في العصور الوسطى . فقد جاء فيه تقدير لموارد البلاد المالية واحصاء لسكانها وما يملكون من اراضي زراعية وانتاج تلك الاراضي وما لديهم من حيوانات. كما كان فيه تقدير لما كان يدفعه الناس من ضرائب قبل مجيء النورمانديين وما كانوا يدفعونه بعد الفتح النورماندي. ويقول المؤرخ أ . ل . راوس عن هذا الكتاب بانه اعظم سجل وصفي في اوربا في العصور الوسطى ، ولا سيما اذا اعتبرنا الظروف التي تم فيها ، ولما يمضي على فتح انكلترا سوى عشرين سنة. واعتبرنا ايضا مبلغ ما فيه من دقة وتفصيل .

تطور الاجهزة الادارية والقضائية في القرن الثاني عشر

توفي وليم الفاتح عام ١٠٨٧ وخلفه ابنه الاكبر روبرت في حكم نورماندیا وابنه الاصغر وليم الثاني في حكم انكلترا . وقد حكم الاخير ثلاث عشرة سنة وتميز حكمه بالقسوة وسوء المعاملة للنبلاء ورجال الكنيسة . وقتل بطريقة يكتنفها الغموض وخلفه اخوة الصغير هنري الأول.

هنري الاول (١١٠٠ – ١١٣٥) وفي عهد الملك هنري الاول ، خطا النظام الاداري والقضائي خطوات مهمة نحو الامام – فقد ازدادت اهمية المحاكم الملكية وقل شأن المحاكم الاقطاعي وكثر عدد الحالات والقضايا التي تعرض امام مجلس الملك. وكانت العادة في عهد وليم الفاتح ان ينتقل هذا المجلس مع الملك اينما ذهب ، فصار يرسل وكلاء عنــه كقضاة متنقلين للاستماع الى دعاوى قضائية في اماكن لا يصل اليها الملك.

لقد ظهرت المحاكم الملكية في طول البلاد وعرضها للنظر في القضايا المدنيـة والجنائية المعرضة امامها وشاع استخدام ما يسمى بالرت (Writ)) وهذا امر ملكي خاص يحصل عليه المرء فيستطيع بموجبه سحب قضيته المعروضة امام المحكمة الاقطاعية وعرضها امام محكمة ملكية .

ومن الأمور البالغة الأهمية التي برزت للوجود في عهد هنري الأول تطور ما يعرف بالقانون العام والمقصود به مجموعة القوانين السارية في انحاء المملكة عامة.

والقانون العام بهذا يختلف عن القوانين المحلية والمراسيم المؤقتة والعرف المحلي كما يختلف عن القوانين الكنيسية (The Canon LOW) انه قانون الملك الذي يتجاوز الطبقات ، ويتجاوز العادات والتقاليد المحلية. فهو ينطبق على جميع سكان البلاد بصرف النظر عن انتماءاتهم العنصرية والطبقية. انه في الاساس يستند على القوانين المحلية والعرف والتقاليد ، ولكنه حور ليتلائم مع مقتضيات تطور المجتمع الانكليزي. وصار في نهاية الامر مصدرا للسلطة بدلا من ان يكون معبرا عن رغبات الملوك. لقد ساد الامن والعدل ارجاء انكلترا في عهد هنري الاول حتى اطلق عليـه اسد العدالة، وقيل ان المرء يستطيع ان يسافر من محل إلى آخر ومعه كيس كبير من الذهب دون خوف او وجل. وهذا امر لم يكن اعتيادي خلال العصور الوسطى في اوربا.

وطرأ تغير على الجهاز الإداري ايضا . فقد صار اكثر تعقيدا فالى جانب مجلس الملك الذي كان يضم كبار رجال البلاد وكبار الاقطاعيين والذي يجتمع ثلاث مرات العام أو عندما يستدعي من قبل الملك. ظهر الان مجلس آخر مصغر مؤلف من مستشاري الملك ورجال البلاط فقد كان هذا ملازما للملك بشكل دائم. ومن هذا المجلس الصغير بالذات تطور الجهاز الاداري والجهاز القضائي في انكلترا فقد تشعبت اختصاصاته ومن تلك الاختصاصات برزت الوزارات المختلفة ، واخذ الجهاز الوظيفي في النمو والسعة والتعقيد منذ ذلك العهد والى يومنا هذا . والحقيقة ان ذلك المجلس الصغير يمثل الأصول البعيدة للوزارات والانظمة الادارية النى نراها الآن ليس في انكلترا فحسب، بل في جميع الاقطار الناطقة بالانكليزية.

واعقبت وفاة هنري الأول حالة من الفوضى وفقدان الامن استمرت لمدة تسع عشرة سنة . كادت ان تبعثر خلالها وتضيع جهود وليم الأول وهنري الأول في بناء البلاد. ولم يكن لهنري الأول ولد ليخلفه على العرش ، فاوصى بالعرش لابنته " ما تلدا " (Mtilda) واخذ كل العهود اللازمة من نبلاء المملكة بالاخص لها . ولكن اغلب اولئك النبلاء خشوا بعدهم بعد وفاة هنري فتنكروا لابنته " ما تلدا " وايدوا ستيفن (Stephen) ابن اخت هنري، الذي استطاع دحر ماتلدا والاستيلاء على العرش. ولكن الامر لم يستقر للملك الجديد فقد تمرد عليه عدد من نبلاء المملكة مدافعين عن حق ما تلدا بالعرش الانكليزي. فنشبت من جراء ذلك حرب اهليه مدمرة استمرت حتى عام ١١٥٣ حيث تم التوصل الى وضع اتفاقية بين الاطراف المتنازعة اقتضت باحتفاظ ستيفن بالعرش على ان يخلفه هنري الثاني ابن ماتلدا وتوفي ستيفن بعد عام واحد فقط من عقد الاتفاقية فاعتلى هنري الثاني العرش الانكليزي.